

وأنا أسمع هذا الحديث وأفهمه، ولكنه لا يبلغ مني ولا يؤثر في نفسي، فما لهذا الحديث أقبلت، وما حاجتي إلى أن أسمعه من ربة البيت وقد سمعته ألف مرة ومرة من خديجة! ومتى استطاعت ربة البيت أن تفرق بيني وبين ابنتها في جدٍّ أو لعب! كلا! لم أقبل لأسمع هذا الحديث، بل لم أقبل لأسمع شيئاً، وإنما أقبلت لأقول شيئاً، وقد قلته في صوت هادئ تبلى هذه الدموع المنحدرة المنهمرة، وكنت أقدر أنه سيقع من هذه المرأة موقع الصاعقة، وأني قد دخلت هذه الغرفة في هدوء ولن أخرج منها إلا في عنف واضطراب، ولكنني قد أتممت ما أردت أن أقول، وانتظرت ثم نظرت، فلم أسمع ولم أر على هذه المرأة اضطراباً ولا دهشاً ولا شيئاً يشبه الاضطراب والدهش، ثم هممت أن أنصرف خجلة مستخذية، ولكنها وقفتني بالإشارة وتركتني لحظة لا تقول لي شيئاً ولا تلقي إليَّ لحظاً، ثم قالت في صوت عادي متزن: وهل أنبأت خديجة من هذا بشيء؟ قلت وقد أغرقت في البكاء: كلا يا سيدتي! وما ينبغي لنفس خديجة الطاهرة البريئة أن يلقى إليها حديث هذا الإثم. ولولا أنني أؤثر خديجة وأؤثر الأسرة كلها لما أنبأتك بشيء، ولما أفضيت إليك بسرّ هذه الأسرة البائسة التي تعيش في بؤسها المظلم في أقصى الريف. قالت وقد نهضت إليّ متناقلة: لا بأس عليك! فلن يُذاع سرُّ أسرتك، ثم ضممتني إليها وقبلتني وهي تقول: لقد أنقذت ابنتي من شرٍّ عظيم.